الأرض الخراب

سمية رمضان

الرقابة: كأنّني أرى الكلمة مكتوبةً لأول مرة. لكنّي شرعتُ في الكتابة وكأنّي أَعْلم تمامًا ما تَحْمله لي هذه الكلمة. وكانت التجربة أشبهَ بالمفاجأة: كأنّما كنتُ أَكتشفُ ثِقَلَ شخصٍ مفروضٍ عليَّ، لا مَهْرَب لي من وجوده، أراه كلَّ يوم وأينما ذهبتُ، وأتخيَّل أحكامَه على مظهري وسلوكي وأفكاري؛ شخص له القدرةُ على شلّ حركتي، أكرهه، لكنْ لا حيلةَ لي في التخلُّص منه، فأنحّيه بالعمد عن بؤرة اهتمامي حتى يتسنَّى لي مواصلةُ الحياة.

وانتبهتُ. ففي الصياغة الأولى لهذه الشهادة كنتُ أحاول اللجوءَ إلى حيلة نفسيّة يَهْرب إليها الإنسانُ من ذكرى أو تجربةٍ أو حياةٍ تَحْمل من الألم أكثرَ ممّا يطيق. كنتُ أحاول التسامي أو التعامي، فبدأتُ شهادتي بجملة حياديّة منتزعة من كتاب أكاديميّ تقول: «ليس السؤال هو: هل هناك رقابة أَمْ لا؟ وإنّما هو بالأحرى: تحت أيّ نوعٍ من أنواع الرقابة نعيش؟»

لكنّ تلك الصياغة، الأميلَ إلى التنظير والتعميم والتي بدأتُ بها شهادتي في حالتها الأولى، كانت تَنْبع هي نفسُها من حسّ بالخجل الشخصيّ إزاء آخرين عانوا التشريدَ والنفيَ وظلامَ المعتقَلات والتعذيبَ وكُمِّمتْ أفواهُهم وقُصِفتْ أقلامُهم أو طُردوا من وظائفهم ـ وكان كلُّ هذا من قبيل «الرقابة.» فكيف لِمِثْلي، إذن، حديثٌ عن الرقابة: أنا التي لم يُحْذفْ لي حَرْفٌ كتبتُه، ولم أر مبنًى معتقَلٍ إلا من خلال نافذة سيّارة، ولم أُشرَّدْ، ولم أُنْفَ، ولم أُعذَّبْ في قسم من أقسام الشرطة، ولم أَفْقدْ عينًا في مظاهرة؟

كلا.. أنا لم أراقَبْ؟

من علياء نكران الألم، ومن الخوف من المزايدة على مَنْ عانوا الرقابةَ إلى أن كُسِرَتْ عظامُهم وقُصفتْ أقلامُهم وهُمِّشوا وشُوِّهوا، قلتُ لنفسي في وقاحةِ مَنْ يتحدّى الحقيقةَ بكذبٍ معلوم: كلا.. أنا لم أراقَبْ.

في زمنٍ ولّى كانت الأمورُ واضحةً والخطوطُ الحمراءُ لا ريبَ فيها. وكان في دُورِ الصحف مكتبٌ عُلِّقتْ على بابه يافطةٌ «الرقيب.» وكانت الرسائل تصل إلينا في بيوتنا وقد امتدّ على طولها شريطٌ لاصقٌ طُبعتْ عليه جملةٌ شهيرة: «فُتِحَ بمعرفة الرقيب!» وكان يقال لنا بلا مواربة: «عليكم مراعاة الحذر لدى الحديث في التليفون.» ويضيفون على نحوٍ تقريريٍّ محايد: «التليفون مراقَب.»

عندما استعدْتُ هذه الصورة بدت لي في الحال كلُّ التناقضات جليَّةً، وتمنَّيتُ لو كنتُ قد لحقتُ بأولئك الذين جَعلوا من آلامهم وتضحياتهم قربانَ شرفٍ، وأَسْبغوا على الصراع ضدّ الرقابة معانيَ ساميةً تَرْتبط بقيم العدل والحريّة والمساواة وبحقوقٍ لا فصال فيها ولا مقايضة عليها: حقوقِ حريّة التعبير والفكر والعقيدة.

أدركتُ حين وصلتُ إلى تلك الجملة لِمَ بدأ نبضُ قلبي يتسارع وأنا أَشْرع في إعادة صياغة شهادتي، وعلمتُ أنَّ ما أَمْلى عليّ الصيغةَ الأولى الرتيبةَ المتعاليةَ لم يكن سوى الرقابةِ نفسِها: الوحشِ الذي يأكل الروحَ، ويشلّ العقلَ، ويميت الناسَ قبل أن يموتوا، ذلك الذي ندعوه أحيانًا بالخوف. لم تكن محاولتي الأولى سوى إنكارٍ لوجود ذلك الوحش الذي يتغذّى على الأرواح، ويأكل من الأجساد عقولَها ويتركها لا بالحيَّة ولا بالميتة. وخطرتْ لي جملةٌ كنتُ قد كتبتُها منذ أكثر من عامَيْن: «كلُّ خوفٍ هو خوفٌ في الخيال، يغذّيه العقلُ الواعي من الذاكرة.»

لو كانت هذه هي المرةَ الأولى التي أكتب فيها تلك الجملة الآن لقلتُ: «كلُّ خوفٍ هو خوفٌ في الخيال، يغذّيه العقلُ الواعي من مَشْهد الواقع.»

ولو أردنا مثالاً على ذلك الخوف لكان مذيعةَ التليفزيون التي تَلُوك في فمها الملطَّخ بالأصباغ جملةً من الجمل التي ابتُذِلتْ، وتتّكئ على حروفها وكأنّها تدرأ شرّاً ما أو تحذِّر من خطرٍ ما، ليردَّ عليها الضيفُ في لهفة الخائف: «بالطبع، بالطبع.»

كانت جملةُ المذيعة، تعليقًا على كلام الضيف، تَحْمل بين طيّاتها تهديدًا خفيّاً وتحذيرًا واضحًا بقولها: «... هذا مع اعتبار تقاليدنا وأعرافنا الشرقيّة.» وكانت الجملةُ التي سَبَقتْ تلك الأخيرةَ مباشرةً هي: «نحن نُؤْمن بحريّة الرأي والتعبير.» لم أسمعْ يومًا أحدَهم يُوقِفُها ليسأل: «ماذا تقصدين بالضبط بتلك العبارة؟» أوْ: «ما علاقة حريّة الرأي والتعبير بـ تقاليدنا الشرقية؟» كأنّ هناك نصّاً تحتيّاً لا يستطيع أيٌّ منهما الخروجَ عليه. هل يَحْدث ذلك إلاّ في وجود الرقيب والرقابة؟

لكنْ مِنْ أيّ الأنواع هو ذلك الرقيب؟ وما هي سِماتُه؟ وماذا يراقِب بالضبط إذا كانت المرجعيَّةُ التي يُفْصح بها عن نفسه هي تلك الكلمةَ الفضفاضةَ: «رقيب،» وإذا كان يصرّ بلا خجل ـ ورغم كلّ الشواهد ـ على أنَّه يَكْفل حريّةَ الرأي والتعبير؟ أهو نفسُه ذلك الوجودُ الثقيلُ الذي يتتبّعني ويَجْثم على أنفاسي حتى لا أستطيع التجوالَ حرّةً في مدينتي التي كنتُ أودّ لو أملكها؟ ولكنْ كيف ذلك، وقد استَعْمَرَ كلَّ شبرٍ فيها ذلك الوجودُ الثقيلُ، وراح يَنْفث فيها أنفاسَه المخمورةَ بالنفط، ويتقيّأ فيها أفكارَه المجترّة، ويسدّ عليَّ الطُّرُقَ؟

الرقابة في القاموس

لجأتُ إلى القاموس. في اللغة وتاريخها يجد المرءُ الكثيرَ من الأجوبة والأسئلة أيضًا. يورد كلٌّ من **لسان العرب** و**محيط المحيط** معانيَ جَذْر هذه الكلمة ـ الوحش على مدى الصفحة تقريبًا:

الرَّقَّابَة هو «الرجلُ الوَغْد، أي الخادم الذي يَرْقُبُ للقَوْمِ رَحْلَهم، أيْ أثاثَهُم، إذا غابوا.»

كما كان العرب يُطْلِقون كلمة «الرَّقيب» على المرأة التي تَرْقُب موتَ زوجها ويكون قد مات ولدُها فتَرِثُه.

أمّا «رقيبُ النَّجم» فهو «الذي يغيب بطلوعه.»

ومعظمها معانٍ تدُور حول فكرة الانتظار الذي يمارسه طرف في غياب طرف آخر: فإذا عاد أهلُ البيت «المُراقَب» اختفى الرَّقَّابةُ (بتشديد الراء والقاف)؛ وإذا حَضَرَ الموتُ الرجلَ لم تعد للمرأة حاجةٌ إلى الانتظار بجواره: وإذا طَلَعَ نجمٌ غاب رقيبُه. أيْ أنَّنا هنا بصدد علاقة حضور وغياب تَرْبط طرفيْن باتفاق ثنائيّ، وفقًا لزمنٍ يَقْصر أو يَطُول، لكنَّه محدودٌ في النهاية. وهي علاقة قائمة على «مصلحةٍ ما» في عالم «الظاهر.»

ولكنْ أيّةُ مصلحة تَرْبطني بذلك الذي يَجْثم على أنفاسي فلا يبيح لي الكلامَ ولا السيرَ ولا الضحكَ على سجيّتي، ناهيك عن التجمُّع في مظاهرة أو الاعتراض الصريح على شيء أو آخر: بل يستطيع إنْ شاء في أيّة لحظة أن يأمر بتفتيش لا منزلي فحسب بل ضميري ذاته؟ أيُّ وجودٍ هذا الذي يقرِّر لي المعانيَ والأفكارَ والأحلامَ سلفًا؟ فلو قلتُ له إنّ «رقيبَ نفسه هو ذاك الذي يَنْتقد أعمالَه فلا يدعُ سبيلاً للناس إلى لومه،» كما جاء في القواميس، ألقى عليَّ بقائمة من الموضوعات وأشكال السلوك وطرق التفكير التي تستوجب الانتقادَ لا من جانبه هو بل من جانبي أنا ومن أعمالي أنا.

ولو أشرتُ إلى أنّ الرقابة عند الصوفيّة هي استقامةُ علم العبد باطلاع الربِّ عليه في جميع الأحوال، فإنّه يتماهى والربَّ واطّلاعَه على علم العباد ـ بل وعلى عقلِ وضميرِ وفؤادِ ووجدانِ العباد في جميع الأحوال والأزمنة والأمكنة.

فإذا وصلتُ معه إلى أنّ «الرقابة هي المحافظة» وأنّ «الرقيب هو الحافظُ الذي لا يغيب عنه شيء،» نسي أنّ «الرقيب» من أسماء الله الحسنى وتذكَّرَ فقط كلمتي «الحفاظ» و«المحافظة.»

الرقيب والحياة

أمِثْلُ هذا الوجود الثقيل هو الرقيب الذي تخشاه المذيعةُ أيضًا، وتَنْقل عدوى الخوف منه إلى ضَيْفها ومن ثمَّ إلى المشاهدين؟ وما الذي يحافِظ عليه هذا الرقيبُ، غير وجوده في حدّ ذاته، الذي أصبح في ثِقَلِ جثّة مهولة، لها كلُّ علامات الجثث، وتَبْعث مثلَها على الخوف والقرف؟

أقول لمثل هذا الرقيب الذي يَعْلم أنّ معركته هي مع الحياة فقط، وراح يحارب الحياةَ في كلّ صورها، وجَعَلَ من مكانه ومكاننا على الأرض خرابًا، إليك هذا التعريف:

إنّ الأرض الخراب هي الأرضُ التي تُصْطنع فيها الأسطورةُ وفقًا لأهواء السلطة وحدها، فلا تتولّد هذه الأسطورة طازجةً من نسيج الحياة.

إنّ الأرض الخراب هي الأرضُ التي ليس فيها عيونٌ لشاعرٍ ترى، وليس فيها مغامرةٌ تنتشي منها الروحُ بالمعرفة.

إنّها أرضُ كلُّ شيء فيها موصوفٌ وفقًا لمثال كامل وتامّ لا يُمْكن تحقيقُه.

إنّها الأرض التي يموت فيها الشعراءُ، وتنتعش فيها قلوبُ (وجيوبُ) الوُعّاظ والكهنة.

إنَّها الأرض التي لا ترى لنفسها من شاغلٍ سوى الحفْظ والتكرار.

فمن ذا الذي يَقْبل بأرضٍ مثلِ هذه.. سوى الجثث؟

سميّة رمضان

روائيّة حصلت عام ٢٠٠١ على جائزة نجيب محفوظ عن روايتها **أوراق النرجس**. أستاذة أدب إنكليزي ومترجمة.